



### الفصل الأول: حلم الحقيقة:

وقفت على مدخلها.. ما هي إلا خطوات تفصل بين الحلم وتحقيقه.. وها قد انتهى بي بحثي عن الحقيقة على اعتاب أعرق جامعة عرفتها البشرية.."جامعة الحياة".." تلك الجامعة التي أمضيت طفولتي وأمل الانتساب إليها يداعب مخيلتي، ولطالما انتظرت اليوم الذي تبدأ فيه رحلتي في غمار البحث عن الحقائق لتدوينها وتنقيتها الواقع من شوائبها وزيفها.

أحسست بقلبي يخفق اضطراباً وتسارعت ضرباته.. شعرت ببرودة تسري في أطرافي.. تسمّرت قدماي وأنا أقف أمام بواباتها الخشبية الضخمة، وتملّكتني شعور غامض لم أستطع تفسيره.. وكأنني مُقبلٌ على مغامرة خطيرة، ولكن سرعان ما تمالكت نفسي واستجمعت قواي فأمسكت بحلقة البوابة بكلتي يدي وطرقتها كي يُأذن لي بالدخول.

فُتحت لي بوابات الجامعة وهي ترژ تحت ثقل إرثها العريق، زلفت خلالها مسرعاً وصوت صريرها يكاد يصم أذني.. ما أن عبرت لباحتها الداخلية حتى لفحتي ريح باردة شعرت معها برائحة التاريخ.. أحسست وكأنني عبرت إلى عالم آخر.. عالم أشبه بخلية النحل.. فالكل يحمل ملفاته الممحشة بالأوراق والجميع منشغل ببحث ما.

كان فناء الجامعة أشبه بتحفة معمارية رائعة، بمبانيه العريقة، وأعمدته الرومانية الشاهقة، تحيطه حدائق أندلسية غناء، تتوسطها نوافير ملبوسة بالفسيفساء فيما كان صوت خرير ماءها المتدق يبعث على صفاء الذهن ويضفي السكينة في

وقفت أتأمل المكان والفرحة لا تسعني.. ها قد تحقق حلمي وأصبحت أحد طلاب الحقيقة.. ولكن من أين أبدأ؟ وبماذا أبدأ؟!!

لحظات أمضيتها وأنا في حيرة من أمري، ولكن الأمر لم يطول كثيراً إذ كان أحد الباحثين القدامى يرمقني من بعيد من تحت نظاراته السميكة، فأحس بحيرتي فرقاً لحالي وأراد أن يجنبني عنة التخطيط، فأشار عليّ بوجوب الذهاب إلى "مكتبة التاريخ" لتكون أولى محطاتي في الجامعة، وليبدأ بحثي من أروقتها.

شكته وانطلقت مسرعاً جهة مكتبة التاريخ أتسلق سلمها الرخامي العريض، والعديد من المشاعر تختلج في فؤادي. كان المكان يلفه هدوءاً شديداً، لا يخرقه إلا حفيظ أوراق الكتب وصليل الأقلام في أيدي الباحثين، فيما تسرب ضوء الشمس عبر نوافذ المبني الصغيرة لينشر خيوطه على الطاولات الخشبية المتناثرة في صالاتها مضيئاً ظلماً المكان الذي عبق بمزيج من رائحة الأوراق العتيقة والجلود.

تسالت بحذر شديد رواق المكتبة الرئيسي كي لا يصدر دبيب قدمي أدنى صوت يقطع تركيز الباحثين المنهمكين في عملهم.. ولبثت برهة وأغمضت عيني وتركت حواسِي تطبع في ذاكرتي الصورة الساحرة لذلك المكان الذي تنطلق منه مسيرتي. عبرت ردهات المكتبة متأنلاً أرففها الممتدة إلى أعلى السقف والتي امتلأت بالمخطوطات والإضيارات الملفوفة من بين جلدية وبردية وورقية، خطّت بلغات عده، فيما رُصّت المجلدات المُغلفة بالجلود الملونة والمنقوشة بالأحرف الذهبية بجانب بعضها البعض في منظر مهيب.

جال نظري في الأرفف في محاولة لإيجاد خيطاً أبداً منه بحثي.. إلى أن وقع بصربي على مجلد عتيق وضع بمفرده على رفٍ خاص به لضخامة حجمه وتعدد أوراقه.. وأدركت أنني قد وجدت ضالتي.. تملكتي إحساس أنني على موعد مع القدر.. وشعرت كأن هذا المجلد قابع على رفه في انتظاري.

حملت المجلد بصعوبة لثقله ووضعيته على طاولة مجاورة ونفضت التراب المتراكم على دفته.. ففتحته وبدأت أقلب صفحاته القديمة بحرص بالغ خوفاً من إتلافها، وأطّلع على فصوله التي تعجبت لتنوعها وتنوعها.. إلى أن وصلت لفصل ليس كباقي الفصول.. وما أن أمعنت النظر إليه حتى هالني ما رأيت.

كان فصل يحتوي علىأربعين صفحة... ولكنها كانت خالية تماماً من الأسطر.. قد تناثرت على صفحاته نقاط سوداء صغيرة هنا وهناك.. وفي منتصفه صفحة سوداء.. كنت أحس ببرودة في أصابعِي وأنا أقلب صفحاته.. إلى أن وصلت لنهاية هذا الفصل الغريب فإذا بورقة تهوي منه.. التقطها ويداي ترتعشان.

كانت ورقة صفراء متآكلة للأطراف قد اقتلت من مكانها في المجلد.. وكانت ملطخة بالبقع السوداء.. ولكن هذه الورقة اختفت عن ما سبقها من الصفحات الأربعين.. إذ احتوت على سطور كتبت باللون الأحمر.. خطّت كل كلمة فيها بخط مختلف مرتبك وكأنه كتب على عجالة.. فيما ذيلت الورقة بفقرة غير مكتملة.

تسارعت الأفكار والأسئلة وتزاحمت في عقلي، ولم أستطع أن أجده لها أجوبة.. فقررت التوجه لأمينة سر المكتبة لأسألها عن حقيقة تلك الورقة.

وقفت أمام مكتبها بضع دقائق فيما كانت تكمل عملها غير مكترثة لوقوفي، كنت مازلت ممسكاً بالورقة بيدي والذهول يلفني من هول ما قرأت، فجأة رفعت إلى بصرها متنبهةً لوجودي.. نظرت للورقة وكأنها قرأت في نظراتي وارتباكي هواجيسي، فهزت كتفيها وأجابت:

- آه.. الورقة الصفراء.. لا أحد يعلم سر تلك الورقة وفصلاها الحالي من الأسطر.. ولكن إذا كنت مُصِراً على معرفة حقيقتها فلا بد أن تسائل "سيدة القصر"، فهي الوحيدة الكفيلة بالإجابة على أسئلتك.

وأكملت:

- ولكنني أحذرك.. لقد حاول العديد من الباحثين من قبلك التطرق معها لموضوع "الورقة الصفراء" فما كان منها إلا أن ردّتهم خائبين، وعادوا بخفي حنين بعد أن شدوا الرحال إليها وتکبدوا عناء السفر.

سألتها ببراءة:

- وأين لي أن أجد سيدة القصر؟؟!

أجبتني باستخفاف لجهلي بمكانها:

- وأين تتوقع أن تكون؟؟ ستجدها في أماكنها المفضلة!!!

كدت أن أذوب خجلاً لجهلي بأمر يبدو بدبيهياً.. وسألتها عن تلك الأماكن.

فردت علي بازدراء ولسان حالها يقول: من هذا الغر الذي لا يعرف أين يجد سيدة القصر، وقالت:

- ابحث عنها مع بزوج شمس يومها الجديد في الغوطة تستنشق عبر الياسمين، أو ستجدها تجوب حقول حوران تمرر أناملها خلال سنابل القمح تُعدُّ حباتها، أما إذا انتصف النهار.. فمكانتها حواري حمص تتفقد أحجارها السوداء بباطن كفيها، وإن لم تجدها في أي من الأماكن السابقة.. فابحث عنها على ضفاف العاصي جالسة تحت شجرتها المفضلة تتأمل غروب الشمس، أما إذا جنح الليل.. فإياك وإزعاجها بذلك وقت جولتها المسائية حيث تختلي بنفسها على ربوع قاسيون.

أومأت برأسها شاكراً لها مساعدتي، وجمعت أوراقي المبعثرة وارتحلت والأسئلة تتتسارع في ذهني.

كان لا بدّ أن أبحث عنها لأسئلتها عن سطور الفصل الفارغة، عن النقاط السوداء المروعة التي تناثرت على أرجائها، عن اقتلع تلك الورقة، عن سطورها المخطوطة باللون الأحمر، عن فقراتها الغير مكتملة.. لا بدّ أن أجدها.. فلا أحد غيرها يستطيع الإجابة عن تساؤلاتي.

الفصل الثاني: بداية الرحلة.

بعد عناء رحلة شاقة وطويلة وصلت وجهتي المنشودة سوييعات قبل غروب الشمس، فلعلت أنني أجدها في مكانها المفضل.. ألمحت متاعي وانطلقت مسرعاً غير مبالياً بنصبي لأبحث عنها قبل أن يحل الظلام، فتلخد لخلوتها ويتغدر على لفائها.

لم يطل بحثي طويلاً، فسرعان ما وجدتها على ضفاف العاصي، وما أن وقعت عيناي عليها حتى فطنت لسبب تسميتها لها بسيدة القصر.

لقد كانت في العصر السابع أو الثامن من عمرها أنيقة الهدام بعباءتها التقليدية المطرزة بالخيوط الذهبية، لم تستطع رؤية وجهها من مكاني بعيد ولكن جلستها كانت توحى بالعراقة والأصالحة.

كانت تجلس مسندة ظهرها لجذع شجرة المشمش المكتنز، وقد ظلتها أغصانها الكثيفة المتشابكة، فيما سارعت أشعة الشمس الصفراء لتشق طريقها من خلالها مُؤدِّعةً ما تبقى من النهار، لتلقي بضوئها الواهن على صفحة نهر العاصي فتزيد جباته لمعاناً وتوهجاً.

وقفت لحظات مشدوها أمام سحر المكان الخلاب الذي تراءى لي كلوحة فنية رائعة تحضرن الطبيعة، ثم دنوت منها على استحياء مخافة أن أفسد عليها تأملها.. ولكنها تنبهت لوجودي.. التفتت ناحيتي التفاتة سريعة تطايرت معها أطراف عباءتها.. فتناثرت من ثناياها بتلات الياسمين.. فاستيقظت برائحة عطره الزكية حواسي المرهقة من عناء السفر.

نظرت إلي فأحسست بضرورة أن أبرر سبب اقتحامي خلوتها، ولكن هيبتها ومقارها الجمتأ لسانني فتلعثمت وعجزت عن الكلام.. وكأنها أشفقت لحالى فباركتني بلهجة مرحبة وبصوت دافئ مريح ما أن لامس مسامعي حتى أذهب عنى اضطرابي:

- يبدو لي أنك باحث جديد؟؟!

**تعجبت لفطانتها ولكنها أكملت:**

أشارت بيدها بلياقة متناهية فلعلت أنه إيداناً لي بالجلوس، فأسرعت باتخاذ مقعدي أمامها، وعقب الياسمين مازال يسيطر على حواسِي.

كما إنك تفتقر للناظرة السميكة التي يرتديها المخضرمين من الباحثين.

ـ كما إنك تفتقر للناظرة السميكة التي يرتديها المخضرمين من الباحثين.

ـ غرها الناعم حاولت إخفاءها كي تتجنب إحراجي:

ـ لا تعجب.. فحدثة سنك، وملبسك، وخجلك الملحوظ، وتلعمك، وأوراقك المبعثرة التي تتأططها، وأضافت بابتسامة علت

ما أَنْ اسْتَقْرِيْتُ فِي جَلْسَتِيْ حَتَّى بَدَأْتُنِي بِحَدِيْثَهَا:

- دعني أُعرفك عن نفسي.. لي أسماء كثيرة وصفات عديدة.. فحياتي الطويلة منحتي العديد من الألقاب وسلبتني البعض.  
تابعت بزهو:

أنا أم الحضارات، أنا مهد الأديان السماوية، أنا عاصمة ممالك العالم، أنا بوابة التاريخ، أنا من وطئت أرضي أقدام الأنبياء الطاهرة، أنا أرض المنشر والمحشر.. فالكل بدأ عندي وينتهي الكل على أرضي.

أنا حمص، حماة، درعا.. أنا دمشق، دير الزور، اللاذقية.. أنا كناك، بانياس، القنيطرة.. أنا القدس، طرابلس، عكا.. أنا صور، غازي عنتاب، الغوطة.. أنا اربد، بيت لحم، حلب.. والقائمة تطول، في جامعة الحياة يحبون مناداتي بسيدة القصر..  
ضحكت ضحكة خفيفة أضاء لها الجوار وأكملت ولكن أحب الأسماء إلى قلبي هو... الشام، فهو اسم جامع لهويتي.

بينما كانت تحدثني لم أتمالك نفسي من إمعان النظر في وجهها المتلائِي المستدير كالشمس في إشراقها، فعلى الرغم من أنَّ الزمن قد خط خطوطه على وجهها إلا أن ملامحه ما زالت متآلِفة منسجمة متَّسقة، وصفحة خديها الناعمة الرقيقة صافية كصفاء الماء تعكس صفاء سريرتها، تعلو خديها حمرة كجني الورد، يتوسط وجهها المضيء أنف مستقيم مرتفع ينمِّ عن دعتها وأصالتها، كان شَء ما في هيبة ملامحها وصباحة وجهها جعلني لا أُمُلُّ النظر إليها.

أكملت حديثها غير مكترثة باشدهاهي بجمال محياتها، وكأنه أمراً قد ألفته عبر السنين الطويلة، وأصبح أمراً اعتيادياً بالنسبة لها..

- نبی العریق یمتد لالاف السنین، صاھرت خلالھا شعوب من أجناس عدۃ ومن أعراق شتی، إلا أنی لم أفتخر بصہر قط  
أکثر من فخری بالآمّوی.

أتكلم باللسنة متنوعة.. من بين الآرامية واليونانية والآشورية إلى السريانية والأرمنية والكردية، بعضها اندر والبعض باق.. ولكن ما أن رطئ لسانه بالضاد، حتى استهوتها مسامعه، وعشقتها قلبه، فزادتني فصاحة وبلغة.

استمرت تحدثني عن نفسها بخامة صوتها، وبأسلوبها الراقي الذي لم تستطع السنين أن تفده أي من عراقتها، وفجأة توقفت وأردفت ببرقة اعتذار:

- عفواً يا بنى.. فقد أطلت عليك واسترسلت في حديثي ونسيت أن أسألك ما الذي أتى بك؟؛ وكيف لي أن أخدمك؟؛  
كان دفع حديثها الشيق، وصدى صوتها العميق، قد حملني ليعبر بي حاجز الزمن، فخاض بي عصور عديدة وأزمنة بعيدة،  
ما أنساني سبب زيارتي لها، ولكن سؤالها المbagت سرعان ما هو بي إلى أرض الواقع، ليعود ويدركني بتلك الورقة  
الصفاء المروعة.

أدخلت يدي في معطفِي وتحسستُها أصابعِي المرتعشة، وكم تمنيت في تلك اللحظة أن أكون قد نسيتها في الجامعة أو أنني قد أضعتها.. فلم أشأ أن يتوقف دفق حديثها الماتع.. كما أن صدى تحذيرات أمينة المكتبة عاد يطُنُّ في أذني.. فكرهت أن ترددني كما فعلت بالباحثين من قبل.

أخرجت الورقة من معطفى بيده مرتجفة، وهممـت أن أخبرها عن سبب زيارتـى لها، ورغبتـى في معرفـة حقيقة تلك الورقة...

ولكنها ما أُن لمحت بطرف عينها الورقة بيدي، حتى تمعَّر وجهها غضباً، وتغيرت ملامحها، وتطاير الشرر من عينيها، وانقلبت بشاشة وجهها عبوساً واحتقاناً.

صاحت بي بنبرة حادة غاضبة ارتجت لها أرجاء المكان:

- ما الذي تفعله الورقة الصفراء بيديك؟؟!!.. ألم أخبركم المرة تلو الأخرى والقرن بعد القرن ألا تعثروا بها؟؟!!.. ألم آمركم بإعادتها لمكانها في مجلدي؟؟.. أما آن لكم أن تَعُووا أنه لا مجال لمساومتي عليه؟؟..

وقفت متسمراً في مكانى من هول الدهشة، لم أفهم سبب غضبها المفاجئ، حاولت أن أستفهم، ولكنها لم تُمهلني وجزرتني بشدة قائلة:

- إن قرارى نهائى وكلمتى هي الفيصل في ما يختص بالورقة الصفراء، ولن أقبل أبداً بتمزيقها وطمس الحقيقة أو تزيفها.. لا بد للأجيال القادمة أن تعرف ما حدث، ولا بد للعالم أجمع أن يعلم الحقيقة.

لم تعد بي حاجة للاستفهام عن سبب غضبها، وقد فرأت في ثنايا كلماتها الحانقة مخاوفها... فلا بد أنها حسبتني أحد أولئك الباحثين من ذوي الأغراض والأهداف الدينية، الذين يُلْطِخون صفة الحقيقة بأكاذيبهم، ويُلْوِّتون التاريخ بافتراءاتهم.. ولا أشك أنها ظنت أن مجئي ما هو إلا إحدى المحاولات المتكررة من قبلهم لإقناعها بالعدول عما كانت تصر عليه دوماً.. ألا وهو رفضها القاطع لتمزيق الورقة الصفراء من مجلدنا لإخفاء حقيقة أسطرها الحمراء عن أعين التاريخ.

ولكن ما أُن شرحت لها حقيقة مهمتي وصدق نواياي، حتى تمالكت نفسها قليلاً، وقالت عبراتها ترتجف وهي تحاول أن تكبح جماح غضبها:

- اسألني عن ممالك إيبلا وأوغاريت وأرواد.. دعني أحدثك عن حضارات شعوبى الكلامية والبابلية والرومانية.. استوضحنى أروي لك وقائع معارك إيسوس واليرموك وحطين وميسلون.. أسأل ما شئت ولكن لا تسألني عن الورقة الصفراء.. لماذا هذا الإصرار على هذا الفصل وتلك الورقة وما هي إلا ورقة ضمن مجلدي المليء بملايين الصفحات؟؟

ولكن أمام إصراري لم تجد مفرأ من مسايرتي.. وما أُن هدأ روعها قليلاً حتى بدأت تقص على حقيقة تلك الورقة، فقالت:

- إذا كنت كما تدعى أنك تبحث عن الحقيقة فدعني أحدثك عن وقائع الفصل المروع ذو السطور الفارغة والذي ينتهي بتلك الورقة المقتلة التي بين يديك.. ذلك الفصل الذي لم يشهد مجلدي ل بشاعته مثيلاً.

تبعد أحداث هذا الفصل عندما تسلط على أبنيائي عُنوه اللکع ابن اللکع، عديم الأصل، مجهول الجد.. فتطاير شره وفرض سطوطه وجبروته على كافة أرجاء أراضي كما فرضها جده "الوحش" على قريته الجبلية من قبل.. سألتها مُستفسراً:

- وهل قَبِيل أبنياؤكِ بأن يفرض عليهم سيطرته من هو كما تصفين من الدناءة؟  
أجبت مؤنثة:

- أُنظن أن يقبل الأحرار أن يسومهم عبداً؟؟ أو يرضى الكرام أن يحكمهم لئماً؟؟ هل يسمح الأصل أن يتولاهم وضيعاً؟؟!!  
بالطبع لا.. ولكنه طَوَّعْهم كراهيةً، و فعل ما فعله كل وضيع لئيم عبر التاريخ حاول أن يحكم الكرام..  
سألتها:

- وكيف استطاع إلى ذلك سبيلاً؟  
 فأجبت:

- كان لا بد له من استعبادهم كي يتمكن من حُكْمِهم، ومن إذلالهم ليُخْضِعُهم لسلطانه.  
أكملت بزفة حارة:

- بات سبيله هو طمس هويتهم.. ليطْبَعُهُم بالطابع الذي يناسبه.

وصار لزاماً عليه أن يُنسيهم ماضيهم.. أن يُنسيهم من هم ومن أين أتوا.. كي لا يعلموا أي طريقٍ يسلكون.  
أنساهم أبطالهم.. فَسَوْا قِيمَهُمْ  
فلا عدل عمر يَحْكُمُهُمْ.. ولا أمانة الجراح تَرْدَعُهُمْ  
لا بطولات بن الوليد تُلْبِيُهُمْ.. ولا فقه بن العباس يُوجِّهُهُمْ  
سلبهم أمجادهم.. فَسُلِّبُوا عِزَّهُمْ  
فلا فتح خيبر يشُدُّ عزائمهم.. ليرسم خريطتهم  
ولا غبار حطين يُثِيرُ فخرهم.. ليحمي هوبيتهم  
ولا صيحة وإسلاماه في عين جالوت تستحث نخواتهم.. لتدافع عن إيمانهم  
وجب عليه كي يُثْبِتَ أركان حُكْمِهِ أن ينسف ثوابتهم..

فعمد إلى قَصْفَصَةَ جناحي العزة والكرامة اللتان حلقتا بهم في سماء المجد.. لقرون طويلة.. وطافت بهم لي Ritowa من نهر سيحون شرقاً.. إلى نهر غرناطة غرباً.. وأبدلهم بهما جناحي الذل والخوف فخلدوا بهما إلى الأرض واستكانوا.  
تحتم عليه أن يمحو تاريخهم الذي ظل لهم نبراً ونوراً.. لتبدأ أول فصول تاريخهم بقدومه.. أراد أن يجتث جذورهم، وأن يحرق أرضهم، كي لا تُورق شجرتهم يوماً من الأيام، فتثمر أناساً يرسمون مستقبلاً غير الذي أراده لهم القائد.  
فأمسي كمن نزع النجوم من سماء الصحراء في الليلة المظلمة، ووضعها في يده وحده، وتركهم في رحلتهم ليعيشوا التيه بلا بوصلة ترشدهم ولا نجم يوجّههم.

سألتها:

وهل نجح مخططه وتحقق بغية؟؟!!

فأجابتنى والحسرة تعلو وجهها:

- نعم نجح بلا شك.. فما الذي تتوقعه يا بني من أمة انتزع منها ماضيها؟؟.. لقد تحولوا مُسوحاً بهوية مُزجَّاة ونفسية مهترئة مُهَاهَلة.. بعد أن سحق قيمهم، وقلب مفاهيمهم.. فقدوا القدرة على التمييز بين الخير والشر.. وبين الحق والباطل.. فجهلوا من يُوالوا ومن يُعادوا.

يا بني.. لقد قتل الشجاعة في قلوبهم فتحولت جبناً.. نزع النُّبل من طباعهم فانقلب لؤماً.. أمات الجرأة في تصرفاتهم فأضحت خوفاً.. أزهق المروءة في ضمائرهم فطُبِعَتْ خنواعاً.. وأد الفهم من عقولهم فاستغباهم.. حطم شموخهم وفتكت بعزمتهم فعاشوا حياتهم بالإحباط، وأضحي شعارهم "النفاق سيد الأخلاق" بعد أن قضى على مكارمهم المتأورة التي اكتسبوها وتميزوا بها على مر العصور.

سألتها متعجبًا:

وكيف استطاع فرداً واحداً أن يفعل كل ذلك أمام أمة شَهَدَ لها التاريخ؟؟

فسرحت لي قائلة:

- كان أول ما فعله أن كَمَّ أفواهم.. وحرَقَ كُتُبَهُم.. وكسرَ أقلامهم، وقام بجمع كل المحابر في مملكته المُفْتَصَبة، ومنع أولادي من تداولها.. وأصبح هو وحده من يكتب الأحداث ويُسْجِلُ التاريخ.. فيُدِونُ ما يشاء ويمحو ما يشاء.. يخلعُ ألقاباً على من يشاء ويُنْزِعُها من يشاء.. يُضفي على نفسه من المحسن والمناقب والبطولات بنزع محسن غيره.. فلا نورٌ يضيء إلا نور القائد، ولا حكمة تُسْتَلَمُ إلا من أقوال القائد، ولا تاريخ يُكتَبُ إلا من وحي القائد وبيد القائد.. وأضحي الويل لمن يُباغتُ من قِبَلْ زباناته وبحوزته محبرة أو قلم، فتلك جريمة لا تغفر، وذنبٌ يستحق مرتكبه أقصى العقوبات.

سألتها عن السطور الفارغة:

- إذا كان كما تروين يدون من محبرته.. فما تفسير الأربعين صفحة ذوات الأسطر الفارغة؟

فأجابتي:

نعم لقد قام بجمع المحابر.. وكتب حسراً من محبرته.. ولكنه استعمل حبراً زائفاً ليدون تاريخاً مزيفاً، فلم ترك كتابته أثراً في صفحات مجلدي الذي لا يقبل الزيف.. ولا يقبل إلا بالحقيقة.

طلت تروي لي كيف استمر يوطد أركان حكمه، وزع التركة بين أفراد عائلته، واستعان ببني جلدته من الجهل والحمقى والأراغن من قريته الجبلية، وأطلق أيديهم ليعيثوا في الأرض فساداً، فتسلطوا على حياة العباد وأرزاقهم.. وحين تمكّن منهم ومملّك رقابهم، وتأكد أن الأمر صار له بلا منازع.. قام يبطش ويعتقل ويسجن كل من تسوّل له نفسه الاعتراض عليه، إلى أن كان منه ما كان...

وفجأة توقفت عن الكلام.. وخنقتها العبرات، ومن شدة تأثيرها انحدرت من مقلتها دمعة وكأنها كرهت أن أرى ضعفها فأشاحت بوجهها بعيداً عن لمسها ولكنها سقطت على العشب الندى بين قدميها فأحرقتها حرارة لوعتها.. صمتت قليلاً وكأنها تستجمع قواها لتخبرني عن حدث جَلَّ..

وأكملت بصوت واهن:

- إلى أن جاء اليوم الذي أطلق فيه العنان لقوى الشر.. واستعلن من زبانيته بكل فاجر جبار أسود القلب مِرياداً.. وعلى رأسهم أخاً له لم تلد أرحام البغايا مجرماً مثله، ليقود "حملة الإجرامية" التي لم يُسجل مجلدي في إجرامها وفظاعتها مثيلاً. تساءلت مستغرباً:

- وما الذي دعاك للقيام بذلك إذا كان الأمر قد استتب له كما ذكرت؟؟

فأجبتني:

- لقد تجرأ البعض ممن ما زال في نفوسهم بقية من نخوة وشجاعة من نخوة وشجاعة من مدينة "أبي الفداء" على تحدي ظلمه والوقوف بوجه جبروته.. فرغب أن يُلقيهم درساً قاسياً لا ينمحى من ذاكرة التاريخ.. وأراد أن يجعل منهم عِبرةً لتردع بها الأجيال القادمة. فجهز لحملة اتخذت "الإبادة" عنواناً لها.. إبادة كل زمرة تخرج من صدور سكان تلك المدينة.. حتى الطفل في أحشاء أمه.. أراد أن يُسكت صوت حاضرهم كي لا يرتد له صدى في مستقبلهم.. فعمد إلى القتل.. القتل بكل أنواعه وأشكاله ووسائله.. قتلٌ فرادي وقتلٌ جماعي.. قتلُ الشباب وقتلُ الشيوخ.. قتلُ الأطفال وقتلُ النساء..

تنهدت وأكملت بصوت حزين:

- لقد حاصرت عصابته الغاشمة المدينة وأغلقوا منافذها لمنع هروب سكانها كي لا ينجو كائناً من العذاب.. وبدؤوا بتفنّن بطرق الإبادة من بين رمي بالرصاص.. وطعن بالسكاكين.. وحرق بنيران أضْرَمت بعد حشر السكان في المنازل والمحال..

- كانت عصابته تقوم بجمع أهل الحي بأكمله لترميهم برصاص الغدر والخسنة لا لتهمة توجّه إليهم إلا لانتمائهم لمدينة الإباء والبطولات... "مدينة حماة".

لقد ارتكبوا بحق سكان هذه المدينة العصبية جرائم يندى لها جبين الإنسانية.. فعذبوا وقتلوا أرواحهم قبل أجسادهم.. بتعذيب أطفالهم وتقطيعها أشلاءً أمام ذويهم.. وبانتهاك أعراض فتياتهم ونسائهم أمام أعين محارفهم.. قبل أن يقوموا بقتلهم أجمعين.

استمرت تخبرني عن تلك المجازرة المروعة:

- جمعوا الآلاف من سكان المدينة وبعد رشهم بالرصاص رَمَّونُوهُ في مقابر جماعية ودفنوا فيها الأحياء من المصايبين مع الأموات.

فجروا المنازل وهدموها فخرت أسفافها على قاطنيها.. دُفِنَ ميّتها وحِيَّها تحت أنقاضها.

صُفِيت عائلات بأكملها.. وأُبْيَدَتِ أحياء برمَتها.. وَكُوِّمَتِ الجثَّ المشوهة والمقطعة والمدهوسة، لتنفسَّخ في شوارع المدينة في منظر يثير الرعب في النفوس.. ومُنْعِ الأحياء من دفنهم، حتى صُبِغَت طرقاتها باللون الأحمر وفاحت رائحة الموت من أرجائها.

وَقَعَ من بقي على قيد الحياة في منازلهم المهدمة ليموت الأطفال والصابون والشيوخ بلا طعام ولا شراب ولا دواء.. يلفهم برد الشتاء القارس فيما يخيم عليهم شبح الموت.. ومن تجرأ للخروج للبحث عن كسرة الخبز أو لطلب العون كانت تتلقفه رصاص القناصة.

سرقوا ونهبوا المحال والبيوت، حتى أنه قاموا بقطع أيادي النساء وشرم آذانهم لنهب حليهم، كأحقر ما يفعل اللصوص وقطاعي الطرق.

وكان "الطاغية الوحش" أراد أن يُلْقِن حماة درساً لا ينساه مستقبلاها.. لتقوم أحجارها المهدمة، ونواعيرها الباكية، وترابها الممزوج بدماء أبنائها.. شاهداً على قدرته على البطش والتدمير والتنكيل.. فتأخذ على أيدي قاطنيها، وتطبق على أنفاسهم إذا ما هم فكرموا بتحديه مرة ثانية.. فأصدر أوامره لجيشه المعتمدي ليُدكُّها دكاً.. فلم يسلم شجرها ولا حجرها من ظلمه.. قرر إبادة أحجارها ومبانيها ومساجدها وكنائسها ... لِيُبَيِّدَ تاريَّخَها فتتلاشى عزائم أبنائِها ويفنى شموخهم.. فلا تقوم لهم قائمة بعد يومهم هذا.

لقد هتكوا العِفة..

واغتصبوا الطفولة..

وذبحوا الكرامة..

نحرروا الحياة فيها.. فتحولت حماة إلى مقبرة مفتوحة.

كنت أستمع لروايتها المرعبة عن تلك المجازرة التي لم يسبق أن سمعت لها بمثيل، والدموع ينهمر من عيناي من شدة تأثيري وحزني، فلم أكن أتخيل أن يوجد من البشر صنف مثل هؤلاء الفجرة بلا مشاعر، وبقلوب لا تعرف معروفاً ولا تنكر منكراً.

أردفت وأنا أكفر دمعي:

- الآن فقط فهمت تفسير الصفحة السوداء التي في منتصف الفصل!!

فعقبت على كلامي موضحة:

- نعم.. فسود تلك الصفحة ما هو إلا انعكاس لقباحة أفعالهم، وفساد سرائرهم، وسوداد قلوبهم.. فظلت شاهداً ولديلاً لا ينحي على جرمهم.

سألتها وعيني مازالتا متورمتان من البكاء:

- أخبريني ماذا فعل إخوانهم من باقي مدنك لردع هذا السفاح.. وماذا كان موقف العالم حيال هذه المجازرة؟؟

أجبت بلوحة ممتزجة بنبرة تهكم:

- العالم؟؛ لقد أجمع العالم على أن يغض طرفه ليحمي مصالحه، أما إخوانهم.. فلم يفعلوا شيئاً ولم يحركوا ساكناً.. فبعد أن قضوا على كل آثار الحياة في حماة.. جمعوا من بقي من شبابها، وزجوا بهم في سجون مغلقة، وحشروهم في زنازين موحشة.. ليمارسوا عليهم أبغض أنواع العذاب، وليلتذروا بإهانتهم وتحقيرهم وتزويعهم بمارسات همجية لا إنسانية..اليوم بعد اليوم والعام بعد العام.. وحرصوا على تسريب القصص والروايات عن وحشية هذه السجون وفظاعتها لكي تُرْهَب باقي أبنائي فيصيّبهم الخوف.. وقد فعلت، فاستكانوا ولم يتجرأ أحد منهم على تحديه بعدها.

لم أتمالك نفسي من شدة سخطي على تخاذلهم أن أواجهها ببعض الحدة:

- لماذا لم تفعلي شيئاً؟؛ لماذا لم تدفعي بهم للوقوف بوجه "الوحش" الظالم؟؛ أو ليسوا أبناءك؟؛

فأجابتنى بلوغة:

- يا بني.. كباحث في بحر الحقيقة يجب أن تعى أمراً مهماً.. على قدر ما كان قلبي ينفتر حزناً، ولكننى لست من يكتب القدر، ولست أنا من يحددجرى سير الأحداث، ولكننى أحاول توعية أبنائى وتجيئهم قدر استطاعتي بعرضي للماضى واستخراج العبر منه لتكون نبراساً لحاضرهم ومساراً لمستقبلهم.. وأترك لهم حرية اختيار مواقفهم، ثم أخبر الباحثين عن الحق أمثالك وأقصى عليكم ما حدث، وأنرك لكم ولضمائركم مهمة التدوين والتوثيق.

قصت علىَّ كيف ظل الوحش يحكمهم، ويذون بمداد حبره المزيف، إلىَّ أن قضى نحبه، فورث ابن له مملكته، وورث حبر أباه، وظل يذون من محبرته حصراً.. وكيف أن شيئاً لم يتغير في واقع أبنائها، إلاَّ أن "الوحش الابن" كان أقل دهاءً من "الوحش الأب". فاستعان بأخ له لم تلد أرحام البغايا مجرماً مثله إلاَّ عمه.. ليساعده بإجرامه في بسط نفوذه.. فكان هذا الأخ من ذاك العِمَّ.

كان الحديث ذو شجون.. ساعات قد مرت على جلسنا.. لم أتبه إلاَّ والليل قد بدأ يرخي بسديله علينا.. تملكت الهلع.. فقد علمت أن موعد خلوتها المسائية قد حان.. وأنها الآن تذهب وتركتني خلفها ومعي العديد من التساؤلات التي مازالت تحيرني وتلح على في الجواب.

كان لا بدَّ أن أتجرأ واستجمع قواي وأسئلها وكل رجاءً لا تخيبني.. وبادرتها:

- هل أستطيع مصاحبتك في جولتك المسائية؟؟!!

- جولتي المسائية؟؟!! ... أجبت والدهشة تعطى وجهها المرهق من عناه يومها الطويل:

- لا بدَّ أنهم في جامعة الحياة قد أخبروك كم لتلك الجولة مكانة خاصة في نفسي.. وأنني لم يسبق لي وأن اصطحبت خاللها أحداً معِ !!  
رجوتها قائلًا:

- لا زال لدى العديد من التساؤلات.. ما بال الورقة الصفراء المقلعة.. وما سر سطورها الحمراء؟؟؛

أطربت قليلاً، وكم كانت فرحتي حين أجبت:

- حسناً.. سأصطحبك معي، ولكن ينتهي اللقاء مع بزوج الفجر.

جمعت أوراقي.. وانطلقا.

الفصل الثالث: فاسيون.

صعدنا طرقات قاسيون الملتوية فأنعش نسيم هوائها العليل جسدي المرهق من عناه يومي الطويل، وما أن وصلنا إلى القمة اتخذ كل منا مقعده، تأملت المنظر الساحر، فبدأ جمال دمشق بأنوارها المضيئة كقطيفة سوداء تناشرت حبات الماس عليها. كنت في غاية الشوق لكي أصل لنهاية الفصل.. فتخبرني عن سر الورقة الصفراء، ولكنني لم أرغب في الإلحاح عليها ولا سيما أنني قد فتحت بتساؤلاتي جروحاً كانت مُوصدة لسنين عديدة.. وانتظرتها حتى رغبت هي في إكمال الحديث.. فنتهدت تنهيدة نمت عن حزن دفين كامن في خلجانها لم تستطع القرون أن تنسيها إياه.. وأكملت حديثنا الذي انقطع بحلول الليل:

- كنت قد بدأت أفقد الأمل في أن يستيقظ أبنائي من سباتهم العميق، ويهبوا للوقوف بوجه الظلم والطغيان.. فتركتهم وقلبي يحرق حزناً ويعتصر ألمًا من شدة غفلتهم وتخانلهم وذهبت لأعلى قاسيون أُبْتَلَ كل ليلة وأدعوه لهم.. إلى أن..

سكتت برهة قصيرة تلتقط أنفاسها.. وكل شغف وانتباه لما ستقوله.. وتتابعت:

- إلى أن هبت ذات ليلة "رياح آذار" من درعا بأصوات خافتة شقت سكون ليل قاسيون الموحش، حاولت جاهدة الإنصات لأفهم كُنة تلك الأصوات ولكن محاولتي باهت بالفشل.. ولكن الليلة بعد الأخرى كانت الأصوات تتعالى والهتافات

تزداد حدة، وتعدد اتجاه الريح فلم يعد يأتي من درعا فقط بل شمل كل مدنى وقرائى.. وما أن تبيّنت من الكلمات التي حملتها لي الرياح، حتى سرت في جسدي قشعريرة لم أشعر بمثلها منذ أمد بعيد.. قشعريرة بثت الأمل في روحي.. وأعادت لي الثقة في أبنائي..

لم أتمالك ضبط نفسيي وقاطعتها متلهفاً:

- بالله عليك أخبريني مازا حملت تلك الرياح؟؛ وبماذا هتفوا؟؛

سكت برهه.. فيما ارتسمت على وجهها ابتسامة ملؤها التفاؤل وأجاب:

- لقد هتفوا بأعلى صوتهم.. الموت ولا المذلة.. بل تجرؤوا وصرخوا على حناجرهم.. الشعب يريد إسقاط نظام الطاغية.  
لم أستطع استيعاب ما قالته لي.. فكيف يمكن أن يتغاضروا على القيام بوجه الطاغية الابن بعد كل ما فعله الأب المجرم  
بهم.. بعد ما سلبهم كرامتهم وعزتهم واستعبدتهم لثلاثين عاماً؟؛ فسألتها:

ما الذي حدث؟؛ ألم تروي لي كيف قام الأب الوحش بقصقصة جنابي العزة والكرامة وقتل الشجاعة والجرأة في نفوسهم فقلّبْتُ خوفاً فأخلدوا للأرض واستكروا؟؛ فمن أين أتى هؤلاء بالجرأة للقيام بمثل هذا؟؟؟!!

أجاب على تساؤلي وقالت:

– يا بني.. لقد حدث ما لم يكن في حُسبان الأب والابن من "آل الوحش" .. لقد ؤلَدْ جيلاً جديداً لم يعرف تاريخاً إلا ما دونه القائد..

کان چیلاً یسمع ویری..

كان يسمع ببطولات القائد وممانعه ضد العدو.. ولم ير منه إلا الخيانة والخنوع والذل..

كان يسمى بعدل القائد.. ولا يرى منه ومن طائفته إلا الظلم والبطش والفساد..

كان يسمع بإنجازات القائد.. ولا يرى إلا سجون ملؤها هيكل مذبوحة بشريتها..

كان يسمع همساً بحماة.. فيري الكوابيس المخيفة في ظلمة الليل..

لے پہنچ سکتے بلکہ میری تربیس نئی ہے یہی ہے۔

س طعوبه يسمع ويرى.. وأصحابي سبابه يسمع ويرى.. وآشد عوده وسو يسمع ويرى.. حيسمع بمذاهبِ ويرى وأضداداً..

وظل الغضب يترافق في داخله على حرية لم يتذوقها.. وعلى عزة يتשוק قلبه إليها.. وعلى كرامة لم تر نور الشمس..

كان الدم يغلي في عروقه ونيران الغضب تستعر في قلبه ففِتَتْهُ حتى أخرج زبده فغلَّف بطبقة قاسية، وكان في انتظار طرفة واحدة لينكسر غلاف شوائبه ويظهر معدنه الأصلي.

**سألهَا:**

- ولكن.. ما هو السبب الذي حرك المياه الراكدة، ودعاهم لكي يثوروا على الظلم كما تقولين ويهبوا هبةً رجل واحد؟؟!!  
قالت:

- كانت نسمات من رياح الربيع العربي المجاور قد لفحت بعض الشباب من صغار السن كبار الهم في درعا.. فتحمسوا لها وتأثروا بحرارتها.. فأرادوا أن يجربوا ولو لمرة واحدة في حياتهم أمراً ظل مُحرماً عليهم.. وقرروا أن يخوضوا تجربة التدوين في مجلد تارихهم ولو بسطر واحد.. فاستعاروا حبراً وخطوا غضبهم ورسموا آمالهم على الجدران.

## تساؤل:

وماذا فعل الطاغية ح

**فأجابت بنبرة حزن:**

القطيع.

فأعتقلوهم.. وقتلوا منهم من قتلوا.. واقتلعوا أظافرهم.. وعذبوا طفولتهم.. وحين طالب آباءهم بإطلاق سراحهم.. رُفضت مطالبهم وسُخر من أبوتهم واستهزي برجولتهم.

وحيثما.. بلغ السيل الرئيسي، فكانت تلك الحادثة بمثابة الطرقة التي كسرت غلاف الخوف والذل والخنوع الذي غلّف قلوبهم طيلة تلك السنين.. فتبين معنون قلوبهم ذهباً خالصاً.. وظهرت قلوب الأسود الحقيقة.. فصاحوا صحة واحدة ارجاء أرضي لصدى زئيرها.. فما كان من "الوحش الابن" إلا أن هرول ليستعين بتركة أبيه البالية، وإرثه الإجرامي ليبدأ مسلسل القمع من جديد بكل وحشية وفظاعة.. ولكن هذه المرة طالت أيدي غدرهم وخسّتهم كل أبنائي بكافة مدنهم وقراهم ولم تستثن منهم أحداً.

سألتها فرعاً:

- وهل استكانوا واستسلموا لغدره مثلاً ما فعلوا من قبل؟؟

فردت نافية:

لا يابني.. هذه المرة كان الوضع مختلفاً.. وكان درس حماة القاسي الذي أراد "آل الوحش" تلقينه شعبي قد علمهم أن استسلامهم لا يؤدي إلا للمزيد من البطش والتنيك.. وأنهم لن يتخلصوا من جبروتة إلا إذا وقفوا وقفه رجل واحد.. فانقلب السحر على الساحر.. فقتل أول رصاصة أطلقت الخوف في صدورهم.. وكانت أول قطرة دم أهرقت إيداناً بوحدتهم.

- هل تعلم ماذا كانت ردة فعلهم أمام إجرام "الوحش" وزمرته؟؟

لم تكن تنتظر أن تسمع مني جواباً.. واستمرت:

- لقد ثاروا بالملائين والغضب العارم يلتفُّهم على كرامة قد هُدِرت وإنسانية قد نُحرِّرت وحرية قد سُلِّبت، وخرجوا نُصرةً لشباب قد قُتِّلت ونساء قد اغتصبت وأطفال قد يُتَمَّت، وانتفضوا دفاعاً عن شيوخ قد أهينت ومصاحف قد مُزقَت وما زلن قد هُدمَت.

وصيفوا بالجرائم والمخربين والمندسين والسلفيين والمسلحين والمتآمرين فلم يُنتِهم ذلك عن عزمهم شيئاً.

حوصروا داخل مُدنهما وقطع عنهم الطعام والماء، جُرحو فمْنٌ عنهم الدواء، قُصِّيفوا بالمدافع والدبابات فتهدم عليهم البناء، قُتِّلوا وتناثرت أشلاؤهم فسرقَت جثثهم وحتى الدفن لم يجدوا سلوى وعزاء.

واجهوا أعنی آلات القمع والتنيك بتصور عاري فأذهلوا العالم أجمع بشجاعتهم واستبسالهم، رفعوا راية السلمية بوعي لا مُتَنَاهٍ، فوقف الداني والقاصي مشدوهاً بحكمتهم.

طفقت تخبرني بفخر وهو عن عزائمهم ويطولاتهم.. فقالت:

رفعوا رايات العزة والكرامة فضرموا المثل في التجرد والإخلاص عندما أعلنا: "لا للسلطة ولا للجاه.. هي لله هي لله".  
وكسرروا جدار الخوف والهوان وقتما صدحوا: "الموت ولا المذلة".

وسجلوا أروع الأمثلة في التوكل حينما نادوا وأصواتهم تشق عنان السماء: "ما لنا غيرك يا الله".  
وهزوا عرش الطاغية وزلزلوا العالم بعدهما أكدوا: "لن نركع إلا لله".

لقد ثاروا ثورة استرجعوا معها كل معاني النبيل والشهامة ومكارم الأخلاق التي سلبت منهم..  
لم أدعها تكمل وقاطعتها قائلة:

تتحدين عنهم وتصورينهم وكأنهم ملائكة تمشي على الأرض!!!  
فأجابتنـي:

لا.. هم ليسوا بملائكة.. كانوا يخطئون ويصيرون كسائر البشر، ولكن قدرتهم على نبذ قيم الهوان التي رُباهم القائد عليها..

وقد أحبهم وتعطشهم لاسترداد كرامتهم المنبوحة حركت فيهم كوامن الخير فاستجابوا لها وتفاعلوا معها، فانعكس على واقعهم..

وعندما ظن الطاغية أنه اجتث جذورهم.. لم يكن يعلم أن البذرة الطيبة التي فطرهم عليها خالقهم لا يمكن لكاين من كان أن يقتلها من قلوبهم.. كيف لا وقد قال فيهم النبي آخر الزمان - صلى الله عليه وسلم - : ((إذا فسد أهل الشام فلا خير فيكم)).  
بدا التأثير واضحًا في كلماتها.. كيف لا وقد تشرفت بذكر النبي الهدى - صلى الله عليه وسلم - لأبنائهما وثناؤه عليهما.. فتوقفت عن الكلام وأطرقته هي تنظر إلى السماء، ثم التفتت إلي وقالت:

- هل أخبرك بسر لم يسبق لي أن أطلع عليه أحداً من الباحثين من قبل؟؟

رفعت رأسها وكلت انتباه للشرف العظيم الذي تريد سيدة القصر النبيلة أن تخصني به دون من هم أقدم وأقدر مني، وقالت:  
- هل تعلم أن أحب الأبناء وأقربهم إلى قلبي هم هؤلاء.. الذي قاموا على الظلم وصدحوا بحناجرهم وبتصورهم العارية...  
"بليك يا الله"؟؟

وهل تعلم أنني مازلت أحفظ أسماء شهدائهم، وأحفظ أسماء الحواري التي سالت فيها دمائهم الزكية، وأحفظ تواريخ دفنهم؟؟  
وهل تعلم أنني مازلت أذكر وجوه الأطفال اليتامي بكى آباءها، وأذكر ملامح الأسى تعلو وجوه الأمهات المكلومات بفقدان صغارهن؟؟

استمرت تُخبرني بالأهوال التي عانوها والصعب التي مرروا بها.. وإصرارهم على مطالبهم في العيش بكرامة.. حتى أني أحسست من هول ما سمعت أنني هرمته، واحتضر رأسي شيئاً، وتورمت عيناي من البكاء حتى جف دمعي.  
نظرت إلي وكأنها أحسست بما أعايه من حزن في داخلي.. فكانها أرادت تعزيتي فقالت:

لقد ظل الظلمة الفجار منذ بدء التاريخ يتناسون أن اليوم الذي يُحاسبون فيه أمام ملك الملوك آتٍ لا محالة مهما طال ملکهم وعَظُمْ جبروتهم..

ولكن طغيان هذا المجرم وجبروته أنساه أنه.. سوف يُحشر على أرضي هذه يوم الحساب الأعظم،  
وأن أحجار حمصي السوداء.. سوف تشهد على سواد قلبه، وأن قطرات الدم في الصباح الباكر المسكوبة على ياسميني..  
ستخاصمه على أحزان اليتامي ممن يتّمهم.

لقد تناست أن المنارة البيضاء في مسجدي الأموي.. ستعدد في سجله القائم أسماء أخواتها من المآذن اللاتي أمر بقصفهن،  
وأن حُطام البياضة المُترافق.. سينطق بتشريده لأحفادي لبرد الطرق في الشتاء القارص.

بينما هي تحدثني شردت عن حديثها وزاغ بصري بعيداً، فقد لفت انتباهي عاموداً من النور يضيء الأفق، مما أثار دهشتني.. لم تتح لي الفرصة لسؤالها ويا درتني بفطنتها المعهودة:  
- لعلك تعجب من عامود النور الذي تراه منبعثاً من أرضي؟؟  
فأومأت برأسها إيجاباً..

قالت لي وقد لمعت عينها وتلألأت حتى أضاءت سواد الليل الحالك، وعلت وجهها نظرة فخر واعتزاز عجيبة:  
- ذلك عمود الكتاب الذي أخبر عنه النبي البشرية - صلى الله عليه وسلم - فقال: ((إني رأيت عمود الكتاب انزع من تحت وسادتي، فنظرت فإذا هو نور ساطع عُمد به إلى الشام، ألا إن الإيمان إذا وقعت الفتن بالشام))..  
ثم أردفت:

- لا تأسى يا ولدي على أبناء الشام فقد تكفل بهم رب العباد.. ومن يتکفل به مالك الملك فلن يُخزل أبداً.. إنما هو التمحص والإبتلاء لتحضيرهم لأمر عظيم.

لم أرغب أن أسألها الآن عن الأمر العظيم الذي ذكرته، ووجدت الفرصة قد سنت لكي أسألها عن الورقة الصفراء

وسطورها الحُمُرُ.. فذلك ما كان يشغل تفكيري.. فسألتها بصوت خافت:

- هلاً أخبرتني عن سر الورقة الصفراء التي لطالما أثارت الجدل بين الباحثين؟؟

وجاء ردها أخيراً.. فقالت:

- تلك الورقة هي آخر صفحة في فصل الوحش وابنه.. ولكنها اختلفت عن باقي صفحات الزور التسع والثلاثين.. فهذه كُتِبَتْ بأيدي أبنائي، وكل كلمة فيها شهدت السماوات على صدقها.

عجبت من خبرها وتساءلت:

- ألم تخبرني أن الأب الوحش كان قد جمع المحابر من كافة المملكة وحرّمها عليهم؟؛ فمن أين أتوا بالحبر ليكتبوا؟؛  
فابتسمت وأجابت:

- يُعْجِبُنِي الباحث النبيه.. نعم لقد فعل ذلك.. ولكنهم حين ثاروا أصرروا على تدوين حقيقة ثورتهم ومعاناتهم في مجلد تاريخهم.. فلم يجدوا حبراً إلا حبر الزيف والدجل الذي لم يُعُد ينفع.. فقاموا بملء محابرهم بدمائهم، وخط كل شهيد سال دمه في المدن والساحات والقرى اسمه وتضحيته من أجل الحق بيده، لتصبح نبراساً ونوراً تهتدى به الأجيال القادمة.. ولكن قوى الشر والباطل في العالم لم يُعْجِبُهُمْ أن تقوم قائمة لأبنائي مرة أخرى، ويعودوا ليتَفَنَّوا بالبطولات.. فخافوا من عدوى هذا الأمر على شعوبهم.. حاولوا في بادئ الأمر تزويرها فلم يستطاعوا، لأنها قد خطت بدماء شهداء الحق.. فقاموا باقتلاع تلك الورقة وحاولوا إحراقها لإخفاء حقيقتها أو مساومتي عليها.. ولكنني عارضت بشدة، وأمرتهم بإعادتها لمجلدي ليراها العالم أجمع فلا تضيع معاناتهم وتضحياتهم هباءً.

وما أن أنهت جملتها حتى تفتت إلى تحذثي بنبرة جادة حازمة.. رجف قلبي من صرامتها وكأنها تكافيء مني أمراً عظيماً..  
وقالت:

.. لقد عانى شعبي الأبي الكثير من المصاعب والمآسي.. وتحمل الكثير من الظلم والجُور.. وأجحف بحقه الباحثون، فلم يأت من يدون الحقيقة الكاملة، ليقص معاناتهم على العالم فيذكر التاريخ مأساتهم.. وأما الآن يابني.. وقد أصبحت أول من يعلم الحقيقة الكاملة.. فاذهب وأعد كتابة ذلك الفصل المزيف.. وامح الباطل من مجلدي.. واعلم أن المسؤولية الملقاة على عاتقك ليست بالعبء الهَيْنَ ولا بالأمر الذي يُسْتَهَانُ به.. وكما أن الطغاة سُيُّحُشُرونَ على أرضي.. فإنك أيضاً ستتحشر هنا على أرضي.. وسوف تُسأَل عن الأمانة التي سلمتك إليها.. فخذار من الزيف والخداع.. ارجع إلى جامعتك وأدي أمانتك على أكمل وجه.

كان سواد الليل قد بدأ ينجلِي.. وبشائر الفجر قد لاحت في الأفق.. فاستأذنتني بأدب جم وقالت:

يابني.. هذا فراق بيني وبينك.. وإذا ما احتجتني في المستقبل فإنك تعرف أين تجدني.

نظرت لها حائراً.. وخجلاً، فما زال هنالك سؤال يحيرني ولم تجبني عليه.. وكأنها بذكائها المفرط قرأت أفكارِي.. وتداركت:

**يبدو لي أن الفقرة الغير مكتملة في الورقة الصفراء تؤرقك؟؟**

وأكملت:

للأسف لم يَعُدْ لدى وقت كي أحذرك عنها.. إذ لا بدّ لي من الذهاب للأموي لمساعدة أبنائي في تحضير المنارة البيضاء لاستقبال عيسى - عليه السلام - .. الذي اقترب نزوله عليها.

قلت:

ولكن... !!! فأسكتتني وقالت:

- انصت.. انصت..

**استمعت فإذا بأصوات هتفاتهم مازالت تتردد بصوت خافت من بعيد.. حاولت الإنصات أكثر فسمعتها واضحة جلية:**

عن هالثورة ما بتخلى لو كل العالم يتخلى  
يا شعبي اهتف بالعالی الموت ولا المذلة  
أقسمنا نحني هالثورة لو ما بيقى واحد منا  
يا لنصر يما الشهادة يا لموت ولا المذلة  
صامدين نحنا بـ هل الثورة ما نركع إلا لخالقنا  
فتح عينك يا قاتلنا الموت ولا المذلة  
لو نتراجع عن مطلبنا دم الشهداء بيلعنا  
نموت وتحيا بلدنا... الموت ولا المذلة  
يا ربی انصرنا وأیدنا اعلى رایتنا وكلمتنا  
ما نرضى إلا بعزننا.. يا لموت ولا المذلة  
الموت.. الموت.. الموت.. ولا المذلة

سلمت سيدة القصر علي وذهبت مسرعة لإنجاز مهمتها.. وتركتني.

لم تعد بي حاجة کي أسألها عن الفقرة الأخيرة الغير مكتملة في الورقة الصفراء.. فالشواهد التي تحيط بي من كل جانب  
تخبرني بشكل جلي وواضح عن كيفية نهايتها..

فهنافاتهم التي ما زال صداتها يتتردد إلى الآن بعد مرور كل هذه السنين.. ولم يتمكن أحد من إخمادها، وعمود النور الذي  
أعضاء الأفق.. وسيظل يضيء إلى قيام الساعة، وتهيئة سيدة القصر وأبناؤها المنارة البيضاء.. تمهدًا لنزول المسيح - عليه  
السلام -؛ كلها شواهد على نهاية هذا الفصل وورقته وفقرته الأخيرة..  
ارحلت وعدت أدراجي وأنا أردد...  
دولـة الـظـلـم ساعـة.. ودولـة العـدـل إـلـى قـيـام السـاعـة

المصادر: